بسم الله الرحمن الرحيم

جدلية الذات والآخر في ديوان حسن المطرو شي " وحيدا كقبر أبي"

إعداد

دة. أمينة عبدالمولى الحراحشة

مركز اللغات، الجامعة الهاشمية، المملكة الأردنية الهاشمية

هاتف نقال: 00962797147339

الفاكس:0096226297065

Email:amena_1976@yahoo.Com

مقدم إلى

المؤتمر العلمي الدولي الأول لقسم اللغة العربية بكلية العلوم والآداب- جامعة نزوى

الفترة من 28-2016/11/30م

الواقع اللغوي والأدبي في عُمان بين المنجز والمأمول

توطئة : أدرك حسن المطروشي غايته من الشعر فقدّم هذا الديوان ، ليختزل فيه تجربته الشعرية ، وأدرك أن الشعر هو فضاؤه ، فحلق به إلى عالمه الخاص به .

وأدرك _ كذلك _ أن الشعر وحده من يستطيع أن يعبر مع الإنسان مختلف الأزمان والأزمات ، وأنه هو سرّه وبوحه ، همّه وفرحه ، قلقه وراحته ، وأن الشعر هو ذاته فتوحد معه .

وقصائد الشعر تتوقد في ذات الشاعر ، وتبني سطورها وصورها فتولد ، وبعدها يموت الشعراء وتبقى القصائد ، وكأنها ترثهم . فها هو يقول : (1)

تأملوا ...غابة نامت على شفتي

حتى وطأْتُ حدود الموت فاشتعلتْ

حملتها باتجاه الماء ... كامرأةٍ

باتت تعبُّ فراغ الليل فانتقلت

وحينما ورثت ماقاله جسدي

توسَّدتْ جثتي في الريح وابتهلت

وأنا أتتبع ذات الشاعر (حسن المطروشي)في ديوانه " وحيدا كقبر أبي " ، أعجزتني تلك الذات ؛ إذ إنها ما إن تتكشف للحظات حتى تتماهى في صور أخرى وموجودات في الطبيعة ، تنتقل من مكان إلى آخر ، من بحر على صحراء ، ومن ظلمة إلى ضوء ، ومن أرض إلى سماء ، لا تستقر في مكان ، ولا تعرف حدّا زمانيا ، تنتقل من ماضٍ إلى حاضرٍ إلى مستقبلٍ إلى استشراق لما هو أبعد ، وتتراوح ما بين ذات وجماعة ، مابين فرد وأمّة ، وما يعطيها هذه القدرة الخارقة على التماهي امتلاكها عنان الشعر وإدراكها غايته _ كما قلت آنفاً _ .

وفي الوقت نفسه تظهر صورة الآخر في ديوانه أكثر وضوحاً ، بتلوينات يستطيع القارئ أ ن يلحظها ، فالآخر غالبا ما يبدو أنه كل عدو لهذه الأمة العربية من عدو سياسي مزّق وحدة الوطن أو عدو فكري أشاع الفتن والأكاذيب وأوهمنا أنه إنساني بمنظمات إنسانية اصطنعها ، أو عدو مقاتل حشد أسلحته .

الآخر في ديوان الشاعر غريب خائن ومراهن وظالم وسارق ، لكنه في الوقت نفسه عدو مفروض رغم أنه مرفوض .

جدلية الذات والآخر في ديوان حسن المطروشي " وحيدا كقبر أبي"

دأَب الشاعر دأْب غيره من الأدباء في تسمية العمل الأدبي باسم الجزء ، إذ سمى ديوانه " وحيداً كقبر أبي " باسم إحدى قصائد الديوان ، وربما كانت هذه القصيدة هي التي جمعت معاناة الشاعر بصورة أشمل وأعمق من غيرها ، وأجدها أنها واسطة العقد ، ولذا فهي نالت اهتمام الكثير من قراء ونقاد الشعر وجمهور حسن المطروشي .(2)

وإن كان هناك من سبق إلى قراءة عنوان الديوان أو القصيدة ذاتها فقد أماط حسن المطروشي اللثام عن هذه الثلاثية (وحيدا _ قبر _ أبي) في لقاء له .(3)

يعد العنوان من أهم عتبات النص ،إذ إنها أولى العتبات التي يقع عليها المتلقي سايكولوجياً ومعرفياً بما قد يحيل إليه مما هو خارج النص أو داخله ، وفي الوقت نفسه ينتظر من العنوان تحقيق شعرية النص ، في إسهام فاعل سواء كان مألوفا أ و غير مألوف عند المتلقي ، وهذه أمور تتحقق بمدى تمدد العنوان داخل النص واستنطاق مساربه (4)

إن العنوان فيه تقنية مقصودة ومهمة اهتم بها الشعراء والنقاد إذ يمثل في القصيدة مرتكزاً أساسياً في تجلية أبعادها ومحتواها .(5)

أن عنوان ديوان حسن المطروشي " وحيداً كقبر أبي" يضفي بمدلولاته على الديوان بأكمله ، فالشاعر كما يبدو مأزوم منذ صفحات الغلاف ، فهو(وحيد) والوحدة هنا قد تكون اختيارية أو قسرية ، بمعنى أن الشاعر اختار الوحدة بعيدا عن هذا العالم الغاص بالآلام والويلات ويهرب بذلك من الواقع إلى الواقع ، ومن الذات

إلى الذات . وقد تكون وحدته قسرية سببها موت الأب ، فالإنسان ينسب إلى أبيه ويستند إليه منذ الطفولة حتى يشبَّ وكأن الأب لا يعوضه أحد ، ولا يعادله نظير فاتحد معه حتى في وحدته في قبره .

أما القبر فهو بمثابة نهاية حياة وبداية مجهول ، انتقال من حياة إلى موت ، من حركة إلى سكون ، من جسد إلى رميم ، وفيه غموض وعتمة واختفاء وغياب .

إن المتمعن في قصائد الديوان يجد الشاعر كثيراً مايلوذ بالطفولة من مراحل عمره ، وكأنه يجد نفسه في هذه المرحلة حلٌّ من المسؤولية أو الآلام فيقول " ويرجف سدر الطفولة فيَّ " (6)

وإزاء هذه الذات اللائذة بالطفولة يكون الآخر بصورة الجمع وبصورة مختلفة عن تلك الذات ، فالآخر جمع من البحارة اعتادوا ركوب البحر مرارا وتكرارا منذ القدم ، فهم متمرسون وأصحاب خطى مرسومة ، بينما الشاعر يعود إلى زمن الطفولة وما فيها من ضعف أو حاجة إلى الآخر : فها هو يقول (7)

وبحارة من قديم يجيئون

يلقون " يامالهم " في أقاصي الهجوع

ولا بد من قوة مضاعفة لمواجهة هؤلاء البحارة ، لذا فالشاعر لم يجد أقوى من أن يتوحد بذاته ، لأن ذاته تشكل طاقة متجانسة كما هؤلاء البحارة توحدوا مع بعضهم فكونوا قوة تغير مسارات السفن وتستنفد خيرات البحر وكنوزه .

تمثل ذات الشاعر ألواناً مختلفة ، وهيئات كثيرة ، تتحول من فضاء لآخر ، ففي كفنه تمرد آخر الميتين ، وكأنه هنا يرفض فكرة الموت ، ولعله الموت قهرا أو عنوة أو قسوة _ إن جاز التعبير_ ومن ثم يجعل الشمس في مسار كوني غير معتاد ، إذ هي المركز والأرض والكواكب تدور حولها ، لكنها على غير العادة تتشرد بين الجسور والمدائن ، إذ يقول : (8)

هنا تسكب العبرات

حتى تيقنت أني كبرت

كبرت على شبهة الموت

حين تمرد في كفي آخر الميتين

أكان حقا على شمسنا تلك

أن تتشرد بين الجسور

وبين المدائن ...

وتتجلى صورة الآخر مرة أخرى بصورة سلبية (الغرباء) وقد ترك الشعر كلمة الذين ((ونمنح أزهارنا للذين .....)) غير محددة ، بدلالة سلبية اكتسبتها من كلمة غرباء، فالذين قتلوا، أو سرقوا، أو فتكوا، أو دمّروا، أو احتلّوا .....

وتكبر ذات الشاعر وتتجاوز مرحلة التوحدّ لتصبح أمّة بأكملها :

وتلك نبوءتي

سفر كميقات القيامة وشاسعُ

لو تهجع الصحراء أعرف كنهه

هذا الذي بيني وبينك ساطعُ

توصيني ((لا ترم وردك عالياً))

وابق ، النشيد هنا ... لعلك راجع " (9)

إن هذه الذات (الأمة العربية) تعيش في حالة من الغياب (سفر) طويل (كميقات القيامة الشاسع) ورغم ذلك فإن ما بينه (الشاعر) وبين (الأمة العربية) واضح وهو ارتباط قوي وثابت ومتجذر .

ويفاجئنا الشاعر بتغيير مفاجئ لعناصر الطبيعة ونباتاتها ، فالصحراء نباتاتها شوكيات ، بينا نجد هذه الصحراء توصي الشاعر ألّا يرمي ورده عالياً وما يفسر هذا أن الورد يمثل مصدر الأمل والتفاؤل والجمال

والأمنيات وفي الوقت نفسه فإن هذه الأمنيات ينبغي ألّا تكون صعبة المنال ، فإن ارتفاعها عالياً إمّا يحول دون رجوعها إليه (صاحبها) الشاعر ، أو التقاط غيره لها . وتطلب الأمة منه أيضا أن يبقى على النشيد ، نشيد الحق الذي يحمل فيه معاني العروبة ، وحقوق الأمة وتاريخها وإرثها .

وتتجلى ذات الشاعر بلون الطفولة كثيراً بهذا الديوان، ولعل السبب أن هذه الفئة العمرية تحتاج إلى أكبر قدر من الرعاية، وفي الوقت نفسه هي أكثر فئة عمرية دفعت ثمن حروب الأمة العربية من ضياع وتشرد وجوع وموت وتشوه و .....

فحملتُ ما يصلُ الغريب برمله

طفلاً أعاتبه فيصرخ (جائع)(10)

وتتكرر صورة الآخر في لفظة (أغراب) مرات عدة، لنفي حقها في المكان "يأتون أغراباً بلا أسماء" (11)

وهؤلاء الأغراب يدّعون الأخوة والإنسانية

ويدّعون بأنهم أخوننا في الموت والميلاد

في حق البكاء

ويدّعون بأنهم شركاءَنا في الحزن

في ماء الوضوء

وفي الصلاة .(12)

وهذه المعاني من أخوة أو مشاركة في الأحزان أو تسامح ديني ، هي ما تصوغه المنظمات الدولية لحقوق الإنسان، التي هي تكون آخر ، أو نسيج آخر (للأغراب) .

ويقول في قصيدة أخرى (13)

سرمديا يدخل الأغراب ليلا حقلنا

قد يتهادون على أعشابه أنجابهم

أما ذات الشاعر فهي ذائبة في قوميتها ومثقلة بالهموم وكثرة المذابح لكنها لا تملك رداً فعلياً إنما تمتمة في الهواء أي استنكارٌ بالكلمة دون الفعل .

يقول:(14)

لكأنما هي هدنه صغرى قبيل المذبحة

(الله يعطيكم)....نتمتم في الهواء

ويضفي على تلك الذات الأفضلية دون سواها

يا ملح هذي الأرض

يا حناءها الغافي بأسوار المدافن

يا بقايا أمنيات الغوص

يا أبها دموع الأنبياء يزفها محراب

فقوم الشاعر ملح الشاعر ، فالملح يغني التربة ويحفظها ، والحناء تزيدها زينةً وجمالا ، وكذلك أرضهم مهبط الأنبياء.

ويطلب الشاعر من الآخر (الأغراب) وتبديد العتمة وكشف القناع ليعرب (قوم الشاعر) حقيقتهم فتتوقد العروبة في دمائهم وكذلك الأغراب يستفيقوا من غفلتهم وروايتهم الغاشمة وتتكون ذات الشاعر في قصيدة أخرى بصورة الإنسان العربي وضميره ، الذي غاب – من منظور الشاعر – في هذه المحن وهذه الويلات بينما الآخر (عدو الأمة العربية) يسير في مخططاته وسلب خيرات الأمة ، وقد أعطى الشاعر قرائن لفظية تدل على الآخر دون أن يصرح به وكأنه يريد بأنه عدو غير واضح المعالم.

يقول : (15)

هبط الضياء على ضفاف مدينتي

وسمعت أصوات الجميع عداكَ

مروا على عشي رأوه مبللاً

وسيكملون في الظلام صعودهم

وتحضر ذات الشاعر بصورة العاشق ، والعاشق عادة ما نجده يشدو بألحان العشق والغرام ، لكن الشاعر عاشق من لون آخر ، وألحان عشقه مختلفة التركيب ، فيقول (16)

إنما عاشق لحني التراب وقد أرى

طهري عليه ...وتارة أوزاري

إنه عاشق عربي لأرض العروبة التي شهدت أرضه الانتصارات أوالنكبات وكلما أوغل الشاعر في التاريخ تطالعه الأمجاد وتحضر القبائل وانتصاراتها ، والزمن – من منظور الشاعر – لا يلغي ذلك التاريخ مهما امتد للوراء .

وله أيضاً (17)

أقول : أحبك والبحر أعمق مما تنبأت

حيث رسمت الفوارس في مرفأ القلب

كانت ظباؤكِ مذعورة – يا لها

هناك تبوأتُ منك الترائبَ

ومما تعانيه ذات الشاعر الوحدة ، والفقد ،إذ يقول (18)

بلا شجر أو حمائمْ

وحيداً كقبر أبي

تتقاسم الليلَ عينان نضاختان

ويهتفي بي ناسك الرمل :

(يا حادي العيس عرج ...)

ولكني حائر أين ألقي بهذه الهزائمُ

إن الشجر يرتبط بالأرض والحمائم ترتبط بالسماء فلكل مواطنه وعالمه لكن الشاعر مجرد من كل يوحي بالارتباط فهو وحيد كقبر أبيه وعيناه تفيض بالدموع وهو محمل ومثقل بالآلام المتتابعة كتتابع العيس خلف حاديها .

ويخرج من تلك الذات المثقلة بالهموم (ذات الشاعر) صوت الناسك يدعوه للنزول صوبه ، ويمثل الناسك الإيمان المطلق والاعتقاد الجازم ، والشاعر لديه الإيمان المطلق والإيمان الجازم بقضيته رغم كثرة الهزائم التي لحقت به وبأمته، وفي الوقت نفسه يعلم صراحة حقيقة الآخر ، فالعلاقة بينه وبين الآخر متوترة بوجود عنصر الخيانة ، الخيانة للذات بمعرفة حقيقة الآخر.فهاهو يقول : (19)

بسرية أتسلق باباً وأغنية وفضاء

إلى حيث يفجأني باحتمالاته البرق

ثم تصلين سيدة العشب والماء

كنت تصلين جهراً

(كلانا إذا ليمت خائناً)

تتجلى ذات الشاعر المتماهية في قومها بصورة الشاعر الذي أدرك رسالته وأيقن الشاعر سلاحه ومنبره ، يقول (20)

أنتم .. وأنتم أنا .. والقادمون أنا

أنا المغني .. لكم قيثارة وفمُ

يتحد الشاعر مع قومه في الحاضر والمستقبل ويؤكد أن وقضيته هي قضية الإنسان العربي ، فيوظف شعره لاستنهاض همته فيقول : (21)

صوتي على دربكم كافٍ لقنطرة

في عودة الخيل حيث العشب يبتسمُ

إن الشعر لديه لا ينضب بل لديه مخزون وفير ما يكفي لقنطرة في عودة الخيول العربية الأصيلة التي كان على صهوتها الفتوحات والانتصارات ، وشعر متوقد وزاخر حتى يكون النصر وتحقيق العزة والعروبة.

لقد بدت ذات الشاعر في قصائد الديوان ذاتاً مؤمنة بوجودها في الحياة ، ومتمسكةً بإرثها وحاضرها ، وحالمةً بمستقبلها ، رغم أنها مثقلة بالهموم والمعاناة ، ذاتاً مفعمة بالإنسانية والقومية ، رافضة الضعف والخذلان، حاقدةٌ على الظلم والطغيان ، ورغم قلقها وخوفها إلا أنها قادرةٌ على النهوض في وجه الأعداء بالكلمة وقصائد الشعر التي تلهب الجنود وتأجج الصفوف، وقد ظلت العلاقة بينها وبين الآخر علاقة متوترة وموتورة، فكشف عن صورها وأقنعتها المتلونة فهي (الأغراب – الغرباء – الغزاة)

إذا كان الآخر في قصائد حسن المطروشي عدواً وغاشماً ويدعي الإنسانية وفي الوقت نفسه يفتك بها ، فإنه كذلك غازٍ عاث فساداً ، بعد أن دخلها بأقنعته المزيفة ، والإنسان العربي مهد الطريق له ، إذ أن (الغزاة) دخلوا القرية والحقل بصورة الفراشات والنوارس ، وكأنهم (الغزاة) يظهرون للرائي بصورة جميلة وبديعة .إذ يقول (22)

لأي الغزاة تراني أنضد عرشاً

وأعلم بدءاً بأن الغزاة إذا دخلوا قرية أيقظوها

لأي الفراشات أفسحتُ درباً إلى الحقل

ثم بكيتُ .. بكيتُ زهاء الرحيلِ

ولأي النوارس عطرت ليل الحروب ؟

ونجد الشاعر يحمل ذاته الأزر في إفساحه الطريق للغزاة ، فقد كان يتسلق الأبوب سراً ويعشق سراً ، ويغني سراً .

فضاء الشاعر (الزمان والمكان وعلاقتهما)

إذا كان الإنسان هو العنصر الأهم في هذه الحياة ، فإن الزمان والمكان لا يقلّان أهمية في إقامة جدلية أخرى مع ذاته .

فالزمان والمكان لصيقان بالإنسان منذ بدأ الخلق ، وابتداء من رحلته من السماء إلى الأرض .

وقد احتل الفضاء الزماني والمكاني في الشعر عامة وفي ديوان حسن المطروشي وحيداً كقبر أبيه ، أنموذجاً – مكانة وأهمية تجدر الإشارة إليها أثناء هذه الدراسة .

وقد أشار الشاعر حسن المطروشي في مقالته إلى أهمية المكان في سؤال موجه له عن سبب سطوعه – أي المكان – وكثافته في قصائده . إذ يقول الأمكنه ذاكرات محتشدة بضجيج الأحداث العابرة والوجوه العاثرة واللحظات الغائرة في الوجدان والتي تمتد في أزمنة الطفولة ببهائها وبراءتها الأولى مروراً بكل أطوار التكوين والتجسد عبر عوالم الحلم والأمل والمأساة والعشق والانكسار ، وصولاً إلى علبائك في ذروة الجراح التبتل والحنين ....

يعد البحر مكاناً بارزاً يشغل قصائد عديدة في الديوان، وكل ما له علاقة بالبحر، كالشاطئ، والبحارة، والغوص، أعماق البحر، النهر، الغرق – زرقة البحر ، الفلك، الماء ، النبع، الموانئ،

وقد عنونه غير قصيدة بالبحر (يترك البحر قصدا) (معابد الماء) (نهر بمفرده) وإن كان حضور البحر لفت باحثة فإنه كان مما أشار إليه الشاعر نفسه في مقابلة له بقوله (أما البحر بذاته فإنه يتجاور عندي

كونه مفردة مكانية فحسب ، لأراه ذلك العالم الأرحب الذي تفتحت عليه مداركي فهو أول صوت سمعته بعد صوت أمي لحظة الميلاد ، ونشأت إلى جواره صديقاً وأخاً وشيخاً ...)

ولذا فإنني كباحثه – كنت دائماً أربط البحر – مكاناً – بمرحلة الطفولة لدى الشاعر – زمانا – فكلما تحدث عن البحر تحدث عن الطفوله ، وكأن – شهد تلك الطفولة وعاش معه زهوة الشباب ، وكذلك شاركه المحن والآلام .

(ويرجف سدر الطفولة فيَّ وبحارة من قديم يجيبون)

والبحر ملهم ومثير للدهشه :

كم دهشة للبحر طاف مبعثراً (23)

إن علاقته بالبحر علاقة الروح للجسد ، ويبقى البحر مشدوداً بقلبي وكذلك علاقته بالبحر مقدسة:

أنا صانع الفلك التي ستقلكم زوجين .. والطوفان لحظة مقدمي (24)

والبحر بالنسبة له عالم خفي مهما عرفت عنه يظل غامضاً ، فيه من الخفايا والأسرار لا يمكن لبشر الإحاطة بها :

والبحر أعمق مما تنبأت (25)

إن البحر لدى الشاعر عالم كوني آخر ، قد يكون فهم أسراره وعجائبه مدعاة لفهم أسرار الحياة ، وقد يكون مستودعاً يلقي به الإنسان كل آلامه وأحلامه ، ولعله يغسله من آثامه ، كلما أثقلته الذنوب والآثام انغمس به ليطهر ذاته .

وقد غزا الإنسان البحر لاكتشاف المجهول ، وفتح آفاق جديدة ، وإثراء الحياة البشرية ، والقضاء على اغتراب الإنسان وعزلته ، وتنمية عوامل الاتصال الإنسانية ومن أجل تعزيز سيطرته على قوى الطبيعة وترويضها وتوظيفها لصالح البشرية .*أدب البحر

والبحر جزء من طبيعة الشاعر التي يعيشها ، فأرض شبه الجزيرة العربية تحيط بها مياه البحار من ثلاثة جوانب جنوبا وشرقا وغربا فكان طبيعيا أن يتعلق الشاعر بالبحر واقعيا وفنيا .

إلى جانب البحر نجد الشاعر يهتم بالصحراء فيذكرها في قصائده ويتوقف عندها في مشاهد كثيرة ، ويذكر موجوداتها كالنخيل ، والسدر ، مضارب القبائل العربية ، الرمال ، الظعن ، الهوادج ، العشار ، الفلوات ، الإبل .

إن الصحراء أرض العروبة وعليها قامت الحضارات ومنها انبعثت الديانات ، وهي عالم الإنسان العربي ، فيها حكايات عشقه وحرمانه ، وفيها سكناه ورحيله ، وكذلك مستودع أسراره وآلامه وموضع أحلامه .

فشجر النخيل يشارك الشاعر الحزن فيحزن معه : بما يذكرك النخل .. هذا الحزين(26)

وعلاقته بكائنات الصحراء وثيقة تصل حد اختيارها له لتشاركه مشاعره :

لم تعترض على الفلوات سوى إبل الظاعنين(27)

والصحراء رمز للسفر والترحال، وكأن حياة لإنسان العربي كلها كذلك،" سفر كميقات القيامة شاسعٌ

لو تهجع الصحراء أعرف كنهه "(28)

لكن سفر الشاعر مختلف ، إنه سفر طويل لا حد له ، سفر أمة مع الحروب والويلات مع الحزن والآهات ، وصحراؤها تكاد لا تعرف استقراراً .

والزمن المتمثل هنا الحاضر المؤلم للأمة العربية ، ومنه يفر الشاعر إلى الوراء ، إلى الماضي ، باستدعاء قبيلة أو بطولات ، أو أمجاد أمم سالفة .

إن المكان يسكن الجسد – برأي الشاعر – على عكس ما يعرف أن الجسد يسكن المكان .

لو توقدون شموعكم فيضيئوا في دمنا النخيل(29)

إن النخيل بأرضه يسكن دم الشاعر ، أي جزء لا يمكن العيش دونه وهو يوحي إليه بكل ما يلذ ويطيب ، لذة مغمورة بالحزن ، فالنخيل يثير لديه اللذه والحزن إذ يقول (30)

لو أن شمساً سافرت في جبهتي

سطعت مضارب (مرَّة) (غفار)

والنخيل متجذر بالأرض عاشق للعروبة ووجوده في أرض العرب دليل على ملكهم وإرث أجدادهم ، إذ يقول (31)

هنا مهاد عناقيدي ... هنا سعفي

ترتديني هنا أسماء من هرموا

وعبر هذين المكانين : البحر والصحراء يتشكل الزمان ، ولا يقف عند حدِّ زمني معين ، أو مرحلة معينة ، بل يتحرك في أربعة اتجاهات وهي :

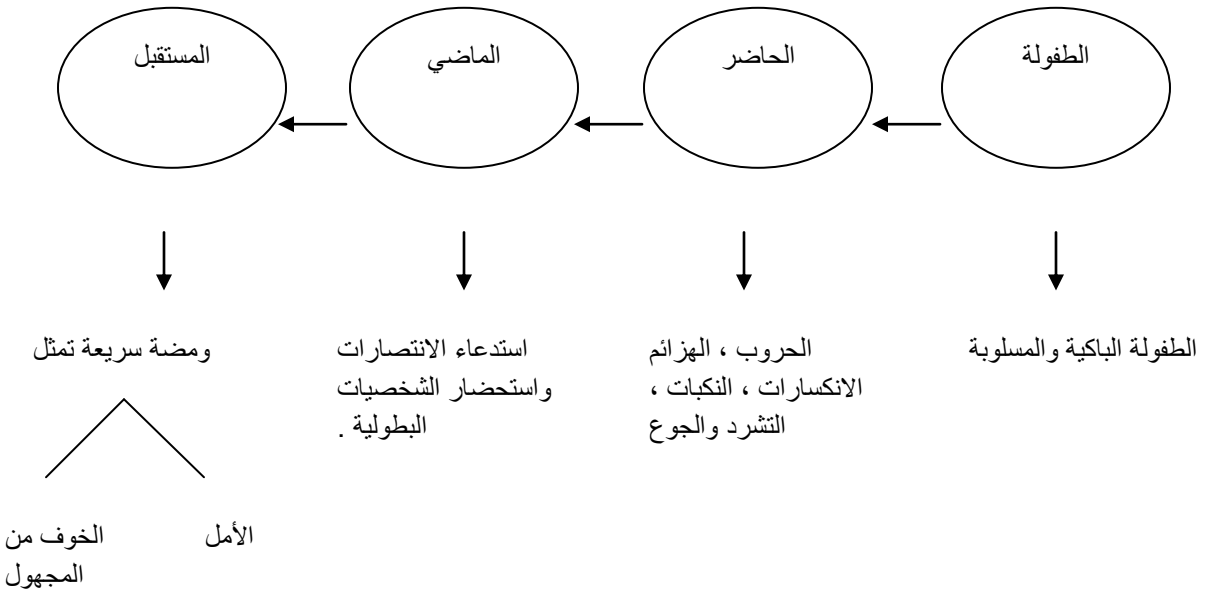

إن مرحلة الطفولة هذه ديوان الشاعر لا تمثل طفولته الذاتية ، إنما هي حالةٌ عاطفية يعيشها الشاعر ويستدعيها كلما أحس بالخوف (ويرجف سدر الطفولة فيَّ) أو كلما حاول أن يتجلد ويجمع قواه أمام الآخر (أنا من آثار الريح ذات الطفولة)

وكذلك هي مرحلة تمثل الحاجة واللجوء إلى الآخر الأقوى كلما أحس بالضعف أو الجوع (فحملت ما يصل الغريب برمله طفلاً أعاتبه فيصرخ : (جائعٌ))

(تهجاني رضيعاً موغلاً بالدمع) الدمع وسيلة التعبير الطفل عن جوعة أو غضبه.

وفي الوقت نفسه لا يقلل الشاعر من قيمة هذه المرحلة لأنها مرحلة تحفظها الذاكرة ، وتختزن في داخل الإنسان ، فإذا ما كبر استحضرها ليجزي أو ينتقم ....

يقول : لو توقدون شموعكم

فيضيئوا في دمنا النخيل

ويستفيق الطير والأطفال والأغراب

أما الحاضر فهو واقع يغص بالألم والمرارة ، والحزن والخسائر ، وكذلك الهزائم والانكسارات المتلاحقة والممتدة في أرض العروبة .

ومع ذلك قوله:(أكان على شمسنا تلك أن تتشرد بين الجسور وبين المدائن)

وفي الحاضر يجتمع الحزن والبرد والضباب :

تشرين يترك دمعتين .. ودوننا

برد الرحيل .. وغامض يتقاطع

وظلان في وضح الغياب يتعانقا

وفيه الفوضى والضجيج مما يجعل الشاعر يتمنى أن تستقر تلك الصحراء

وسفر كميقات القيامة شاسعٌ

لو تهجع الصحراء أعرف كنهه

وفي الحاضر تتغير ملامح الأشياء وتتلاشى العلاقات والروابط

وتلك ملامح الأشياء .. نارٌ

قبالة خيمة أو أرخبيل

يبدوا أن لا سفح سيبكي هنالك.. حين يرتجل النزيل

أمر على الديار فلا جدارٌ أقبله .. وإني قد أطيل

في الحاضر دمٌ نازفٌ وغياب فرحة :

يتقاسمون الأضحيات رأيتهم

ورأيتني خلف النوافذ أرتمي

والريح ذاهبة بكل شدوها

وكأنما للريح ذات ترنمي

في الحاضر سلبٌ وغزوٌ وحروب ورحيل :

لأي الغزاة تراني أنضد عرشاً ؟

لأي الفراشات أفسحت دربا إلى الحقل ؟

ثم بكيت .. بكيت زهاء رحيل ؟

لأي النوارس عاصرت ليلاً حروبي ؟

(سرمدياً يدخل الأغراب ليلاً حقلنا)

وإنا قد نجد الشاعر يلوذ بالماضي فراراً من مرارة الحاضر ، فيستدعي انتصارات الأمة العربية وتاريخها المشرق تعويضاً لهذا الحاضر المليء بالهزائم

يقول : لو أن شمسي سافرت في جبهتي

سطعت مضارب (مرَّة) (غفار)

وكذلك يستدعي الشخصيات البطولية ، لتنهض من الحاضر شخصيات تقلدها وتحذو حذوها :

أقدُّ حيناً قميص القلب ثم أرى

طيوف أجدادي المرأة تلتهمُ

أولئك الغارسون " الضوء" ثانية

تدثروا مني الأضلاع والتحموا

إذا الوريد (صلاحُ الدين) يملأه

بالفاتحين فالشريان (معتصمُ)

ولأن الشاعر يدرك تماماً أن الماضي انقضى ولم يبق منه إلا الذكريات والملامح ، ويدرك تماماً أن الحاضر لا يتلاءم مع ماضيه بل يتنافى معه ، لذا لا بد أن يكون مصير الحاضر التغير والتحول إلى صورة تشبه الماضي المشرق ، فالمستقبل جاء في شعره يحمل بوارق أمل في تجاوز الحاضر ، وتحقيق ذاته وذات أمته يقول *: توصيني لا ترم وردك عالياً)

وابقِ النشيد هنا .. لعلك راجعٌ..

إن الانتماء إلى الأمة جزء من تجاوز الحاضر لتحقيق المستقبل الحالي :

هيأت أوردتي لصيفٍ مقبلٍ

ومضيت مدخراً هنالك مأتمي

ولأنني أنحاز نحو دموعكم

قالوا : لذاكرة الخطيئة ينتمي

وإن كان المستقبل يحمل الأمل بالتغيير فإن الشاعر لا ينكر خوفه منه لأن فيه تنبؤٌ بالمجهول

يا رعشةً أولى ... وتلك نبوءتي

سفر كميقات القيامة شاسعٌ

وقوله :

وثم متاهة تحتجُّ خلفي :

لقد أوغلت يا هذا القتيل

لكن هذا الخوف من المستقبل لا يمكن له أن يتنامى أمام إيمان الشاعر المطلق بحق أمته وقدرتها على تجاوز المحن ، وكذلك إيمانه برسالته ودوره كشاعرٍ أسهم غيره الكثير في بث الحماس والحميّة في نفوس أبناء الأمة واستنهاض عزائهم

أنا صانع الفلك التي ستقلكم

زوجين والطوفان لحظة مقدمي

وقوله :

فغدا إن تخلع الصحراء برديها

أتيناها نبياً ثائراً إما قتيلاً

3. التقنيات الفنية في ديوان حسن المطروشي ((وحيداً كقبر أبي))

1. التناص : إن ظاهرة التناص من أبرز الظواهر الفنية في الشعر ولها تأثيرها البالغ في التشكيل الجمالي على النص الأدبي ، وتضرب جذورها في عمق الماضي (32)، إذ يعاد من خلاله اكتشاف الماضي ، أو قراءته في ضوء الحاضر ، وإعادة تشكيله من جديد ، وفق رؤية شعرية تمتص المحمولات الموروثة لتكشف عن طزاجة التجربة الشعرية وخصوصية مبدعها في تعبيره عن الواقع ، بكل مايحمل من أبعاد ذاتية وحضارية وإنسانية .(33)

استند الشاعر إلى تقنية التناص في قصائد عديدة من ديوانه وقد أدت هذه التقنية إلى تمكينه من زمام النص والتحامه بصورة لافته وإضفاء روحه الشعرية بكل سلاسة، ومن ذلك :

" ويلتحمُ الشاطئان

فعذبٌ فرات

وملحٌ أجاجٌ

وبينهما برزخٌ من بياض الحنين "

استحضر الشاعر الشاطئ والحنين وأضفاهما على مشهده الشعري في القصيدة وأخذ روح النص القرآني وإيقاعه الصوتي المتناغم مع فكرته ، المتمثل في قوله تعالى : " وهو الذي مرج البحرين هذا عذبٌ فراق وهذا ملحٌ أجاجٌ وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجورا " الفرقان آية 53

يتعالق النصان إلى حدٍ كبير في فكرة الالتحام وفي فكرة وجود حاجز ، لكن الشاعر يضفي ماهو جديد إلى نصه ويغاير في مسار التناص ليبدع فكرة توافقه ، فهو هنا يجعل الشاطئين هما اللذين يلتحمان ، وهذا على غير المألوف ، وما بينهما كذلك أمر غير مألوف ، فالحنين هو مايفصل بينهما ، وبذا يكون المعنى الذي يريده هو ذاته ومحطات حياته بما فيها من انجازات أو انكسارات

وفي موضع آخر نجده يتناص مع قصة نوح _عليه السلام _ فيقول :

" أنا صانع الفلك التي ستقلكم زوجين ... والطوفان لحظة مقدمي "(34)

وقد قال تعالى : " فأوحينا إليه أن اصنع الفُلك بأعيننا ووحينا فإذا جاء أمرنا فار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون " *المؤمنون آية 27

إن الشاعر وإن تقاطع مع النص القرآني في بعض السياقات اللفظية إلا إنه أخذ من النص ما يشير إلى مكانة نوح نبياً وذاته شاعراً .فنوح عليه السلام موحى إليه من الله تعالى وهو محاط بالرعاية الإلهية ، وهو صاحب رسالة سماوية ، وكذلك الشاعر موحى إليه شعراً وهو كذلك صاحب رسالة أدبية وإنسانية .

إن التناص في ديوان الشاعر لافت للنظر فلا تكاد قصيدة تخلو من تناص وهذا موضع آخر يقول :

تتقاسمني الليل عينان نضاختان(35)

يتناص مع قوله تعالى : " فيهما عينان نضاختان *فبأي آلاء ربكما تكذبان "الرحمن آية 67/66

إن لفظة الليل تنقل نص الشاعر إلى منحى آخر مغاير عما هو في النص القرآني لتدل على الحزن والألم وكل ما يسبب البكاء .

إن الشاعر تشرب قضيته حتى سكنت شعره ، مبني ومعنى فكان التناص ينساب في قصيدته ، فيعطي إضافة معنوية للنص كما يحقق إيقاعاً صوتياً ينبّه القارئ وإلى موضعه دون أن يستغرق مساحة من النص ومن ذلك :

هناك تبوأت منك الترائبُ

ماليلةُ القدر ؟

كان حمامك يهدل في مدخل الغار

حتى دنا مطلعُ الفجرِ .

وهو في هذا النص الشعري يتناص مع سورة القدر :" إنا أنزلناه في ليلة القدر* وما أدراك ماليلة القدر* ليلة القدر خير من ألف شهر* تنزل الملائكة والروح بإذن ربهم من كل أمر * سلامٌ هي حتى مطلع الفجر "

لعل الشاعر يطمح إلى أ ن تحل ليلة القدر في بلاده ،فهي خير من ألف شهر ، والليلة التي يريدها الشاعر هي ليلة يكون بعدها العز والنصر .

إن الشاعر نوّع في أشكال التناص التي استند إليها ، إذ نجده يتناص مع الآية القرآنية بصورة تامة ، وفي حين آخر يتناص مع كلمة أو قصة نبي من الأنبياء ، وهذا التنوع دليل على قدرته الشعرية على امتصاص النصوص الأخرى دون أن يستهلكها أو يضعف نصه .

وقد أكد الدكتور شكري الماضي أن النص حين ينبثق أو يتداخل أو يتعالق مع نصوص أخرى فإن هذا لا يعني الاعتماد عليها أو محاكاتها ، بل إن التناص يتجسد من خلال المخالفة أو المعارضة مع نصوص أخرى (36)

3. النزعة الصوفية :

بدت ملامح الاتجاه الصوفي في قصائد عدة من الديوان ، وفي الوقت نفسه لا يمكن لنا أن نصفه بالمتصوف ، لأن معاني واتجاهات الصوفية هي التي انقادت إليه، واتجهت إلى عالمه – من وجهة نظري – إذا وجدت أن بينها وبين عالم الشاعر قواسم ولدتها شفافية حسّه وعمق شاعريته وبُعد معانيه ، مما جعلها تتمنع على القارئ ويسلتذ كلما توصل إلى كشف جديد في عالم النص

ومن ملامح التصوف في قصائده فكرة التوحد

إذ يقول :

بما يذكرك النخيل ... هذا الحزين

توحدّ بذاتي

وكذلك فكرة الحلول

إذ يقول :

وأصابَ .. لكنني أقسمُ

بأنك حِلٌّ بهذا الجسد

وغيرها في قوله

بكفي هاتين .. هاتين ألبستك البحر ،

هل تذكرين طوافي على الماء

كنت تقولين : ما أعجبَه

لقد كثّف الشاعر رؤيته الشعرية ، وافسحَ لها عالماً بحدّ ذاته ، لتتولد قصائده، بصورةٍ غير عادية ، لتكون ذات قراءات متعددة لا قراءة واحدة ، حينما أتاح لها الانفتاح على كل الأطراف الفكرية إلى التاريخ والحاضر والمستقبل ، وفي فضاء مكاني غير محدود ، حيث الجلي والخفي في الأرض والسماء في العمق والسطح ، ولذا كانت قصائده غامضة أو لنقل تحتاج قدرات عالية وخبيرة في مهم عالمها .

إن تعددية المسالك إلى النص الواحد ، إنما يدل على استغلاقه ، وتمنعه واستعصائه على الإبانة وهو ما يعني أيضا خروج الخطاب الشعري العربي من مدونة الوضوح إلى مجال الغرابة والغموض ، أصبح يفرض على المحلل والناقد البحث في رؤية الشاعر أكثر من البحث في وسائله الفنية .(37)

3. الموروث التاريخي والديني

اتكأ الشاعر بشكل لافت للنظر على الموروث التاريخي والديني ، فقد استدعى شخصيات تاريخية بطولة كالأنبياء

ومن ذلك قصة هجرة سيدنا محمد _عليه السلام_ واختبائه في غار

يقول :

كان حمامك يهدلُ في مدخل الغار

حتى دنا مطلع الفجر

ثم تساءلتُ : هل بلغت هجرتي سدرة المنتهى

إن الشاعر يلجأ إلى ذاته ويهاجر منها إلى أقصى ذاته أيضاً ويضفي ويجد أن هذا اللجوء فيه شيء من القداسة والطهر.

وفي الوقت نفسه يجد أن تلك الذات قادرة على التغيير وأداء رسالة مقدسة ، فها هو يستدعي شخصية سيدنا نوح _عليه السلام _:

" أنا صانع الفلك التي ستقلكم

زوجين .. والطوفان لحظة مقدمي

ونجده حين يُدين الأغراب الذين استباحوا أراضي الأمة العربية وخيراتها لكنهم لم يستطيعوا أن يقتلوا العروبة في عروق أبنائها أو إيمانهم بحقوقهم ، فها هو يذكر قصة عيسى _عليه السلام_وعندما قام أعداؤه بصلبه وأخبر القرآن أنه لم يقتل ولم يصلب ولكن خيّل لهم .

قد يتهادون على أعشابه أنجابهم لكنهم ما صلبوا عيسى

وهذا الألق الفائض من أموتنا لن يسفكوه

وكذلك نجده يستدعي قصة موسى _عليه السلام _وقوم ثمود وغيرها ، وكل ذلك من شأنه أن يعطي النص أبعاداً ذات أثر في نفس المتلقي.

وقد استدعى أبطال الأمة العربية وقدراتها ، كصلاح الدين والمعتصم ، وبلال الحبشي ، فيقول :

إذ الوريد (صلاح الدين) يملأه

بالفاتحين .. فللشريان معتصم

وكاليمام غريبا مرّ َيتبعه

سمع الأذان (بلال)ما أهمكم

فصلاح الدين والمعتصم قادة الفتح ، وصوت بلال وصل إلى السماء وهو يؤكد حضور الأمة العربية والإسلامية .

وكذلك استدعى من التراث أغمنيات الأمهات، وكأنه يصل بذلك الماضي بالحاضر ومن الماضي يسترق الأمل الأمل ، يقول :

خذني بلبلاً ما زال يسجعُ بالمراثي العشر

حتى بغتتي هذي :

" دللوّل الولدْ يا بني "

وهي أغنية عراقية تقولها الأمهات للأطفال حتى يناموا

4. اللغة الموسيقية :

تفيض قصائد الشاعر في هذا الديوان بالكلمات الحزينة وإذ يكثر البكاء والدمع والدم والموت والمقبرة

" هنا تسكب العبرات "

" تسترني عند إصغاء دمعي "

" طفلاً أعاتبه فيصرخ "

" والأقصى دمي يا رحلة الزئبق "

تهجاني رضيعاً موغلاً في الدمع

وغيرها الكثير الكثير

وكذلك تكثر كلمات الحرب والقتال :

_ ركبوا حفيف شتائهم وتألبوا

أخذت بنادقهم تشيرُ إلى دمي

_ لأي الغزاة تراني انضدُ عرشاً

_ لأي الفوارس عاصرتُ ليلَ الحروبِ

_ هنا آثار عشاق

_ أناخوا ذات سبي ثم بادوا في فتوحات

وقد سيطرت عاطفة الحزن والألم على الديوان فكانت غالباً موسيقى قصائده تبث الأنغام الحزينة

_ غيمٌ آتي

كيف أذرفهُ في الأقاصي ؟

وأرجع لا دمعةً

لا قناديل

لا عشب

لا ورقًا راحلا للوريد

ولا زهرةٌ تشتهي أنها ...

بينما نجد أن إيقاعه يعلو إذا ما استنهض الهمم أو توعّد الأعداء

شبهي كثيرٌ في الرمال وإنما

ذاك الذي حضنَ الخناجر توأمي

هيأت أوردتي لصيفٍ مقبلٍ

ومضيتُ مُدّخراً هنالك مأتمي

وقوله : أنا عاشقٌ لحني التراب ... وقد أرى

_ طهري عليه ... وتارة أوزاري

_ لو أن شمساً سافرت في جبهتي

سطعت مضارب (مُرّة) و(غفار)

وبنظرة عامة إلى قصائد الديوان نجد أن الشاعر يراوح في استخدامه الأفعال الماضية والمضارعة، لكن الأفعال المضارعة أكثر حضوراً وكثافة ، وقد وجه الفعل المضارع لوصف حاضر أمته وما تواجهه من اعتداءات أو حروب كما هو الحال الآن ، ومن ذلك :

– مراراً يضاءُ الرصيف

_ وغير بعيد تجيءُ الظلال

_ لا تملُّ رثاء النهايات

_ كم ليلة أنحني كي يمرَ الحفيف

_ لم تبقَ للمساء معجزةٌ

_ وسيكملون في الظلام صعودهم

_ جهة التلال .. ولن أكون هناك

وكذلك نوّع الشاعر في أساليبه الإنشائية بين الأمر و الاستفهام ، والنفي والنداء والتمني .

ومما يجدر الإشارة إليه أن الرمز حاضر في الديوان من العنوان حتى آخر قصائده ، فالشاعر لا يتعامل مع ما يمر به في حياته وحياة أمته بسطحية ، وإنما يعمد إلى ما يسميه أدونيس كيمياء شعورية ، من خلال الرمز ، ومن ذلك : كلمة الليل مثلا ترمز إلى الحزن والخوف ، وكلمة الأغراب ترمز إلى العدو المقنع ، وكذلك كلمة الأضحيات ترمز إلى القتل والتدمير لكثير من الدول العربية ، وكلمة النخيل ترمز إلى الثبات والشموخ والعطاء .

وكما اعتاد الشعراء المحدثون أن يرمزوا بالمرأة للوطن(38) ، ولعل الوطن الذي يريده المطروشي هو الوطن العربي ككل ،فالشعر العماني تميز بالرؤية القومية ، إذ لم يعد أدباً محدودا إقليميا محددا ، لقد كان صدوره عن الروح العربية ذاتها وعن الوجدان المجتمع العربي بعامة ، وشارك أحداثا قومية ، وانفعل بكل ما جرى ويجري حوله ،(39)والمطروشي هو ممن حمل على عاتقه_ شعرا_ بث هموم الوطن العربي وآلامه .

الخاتمة :

يُعدّ الشاعر حسن المطروشي من الشعراء العُمانيين الذي اتصفوا بالقومية العربية، إذا اعتنى بالكشف عن هموم الوطن العربي والآمة وأمنيات أبنائه، وكذلك استطاع- المطروشي- أن يجعل نصه الشعري عالماً ثرياً باللغة والدلالة، فما أن تنفتح للقارئ والباحث نوافذ قصيدة له حتى تستغلق عليه في القصيدة نفسها، وذلك لنهج الشاعر وتقنياته الشعرية التي استخدمها كالرمز والأسطورة والإيحاء، والتناص، وغيره من التقنيات.

وإن كانت هذه القراءة محاولة لاستجلاء بعض شعره، إلا أنها قد تأخذ شكلاً آخر، وقراءة مشابهة أو مغايرة في مراحل قادمة، فنص المطروشي فيض خفي، وروح تسري في جسده، لا تدري في أي جزء تسكنه.

فما كان في هذه الدراسة من صواب فهو من الله، وما كان فيها من نقص أو زلل فهو مني.

والله ولي التوفيق

الهوامش :

1-المطروشي ، وحيدا كقبر أبي ، ص16 .

2- http://om.s-oman.net/archive/index.php/t-136144.htm

3- http://om.s-oman.net/archive/index.php/t-136144.html

4- المغربي، حافظ : أشكال التناص وتحولات الخطاب الشعري المعاصر ، ط1 ،مؤسسة الانتشار العربي ، بيروت ، 2010 ، ص246-247 .

5- الزواهرة ، ظاهر : اللون ودلالته في الشعر / الشعر الأردني نموذجا ، ط1، دار الحامد ، عمان ، ،ص151 .

6- المطروشي ،حسن : وحيدا كقبر أبي ، ص6

7- المصدر نفسه ،ص5

8- المصدر نفسه ،ص6

9- المصدر نفسه ،9

10- المصدر نفسه ،ص 10

11- المصدر نفسه ،11

12- المصدر نفسه ،ص13

13- المصدر نفسه ،ص31

14-المصدر نفسه ، ص13

15- المصدر نفسه ،ص14

16- المصدر نفسه ،17

17- المصدر نفسه ،39

18- المصدر نفسه ،28

19- المصدر نفسه ،29

20- المصدر نفسه ،35

21- المصدر نفسه ،35

22- المصدر نفسه ،29

23- المصدر نفسه ،10

24- المصدر نفسه ،27

25- المصدر نفسه ،39

26- المصدر نفسه ،6

27- المصدر نفسه ،7

28- المصدر نفسه ،9

29- المصدر نفسه ،12

30- المصدر نفسه ،17

31- المصدر نفسه ،46

32- الزواهرة ،ظاهر : التناص في الشعر العربي المعاصر /التناص الديني نموذجا ، ط1، دار الحامد ، عمان ، 2013 ، ص 25 .

33- غرموس ،إبراهيم : آفاق الرؤيا البنيوية ،دراسات في أنواع التناص في الشعر الفلسطيني المعاصر، ط1، الهيئة العامة للكتاب ، وزارة الثقافة ، جامعة بيرزيت ،2005 ، ص7.

34- المطروشي ،حسن : وحيدا كقبر أبي ، ص27

35- المصدر نفسه ، ص28

36- الماضي ، شكري عزيز ، في نظرية الأدب ، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، 2005 ، ص177 .

37- الناصر، إيمان عيسى :وحدة النص وتعدد القراءات التأويلية في النقد العربي المعاصر ، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ،2011، ص164 .

38- خليل ، إبراهيم : مدخل لدارسة الشعر العربي الحديث ،ط1، دار المسيرة ، عمان ، 2003 ، ص332.

39_ علي ، علي عبدالخالق : الشعر العماني مقوماته واتجاهاته وخصائصه الفنية ، ط1، دار المعارف ، القاهرة ، 1984 ، ص8.

المصادر والمراجع

1- القرآن الكريم.

2- خليل ، إبراهيم : مدخل لدارسة الشعر العربي الحديث ،ط1، دار المسيرة ، عمان ، 2003

3- الزواهرة ،ظاهر : التناص في الشعر العربي المعاصر /التناص الديني نموذجا ، ط1، دار الحامد ، عمان ، 2013 ،

4- الزواهرة ، ظاهر : اللون ودلالته في الشعر / الشعر الأردني نموذجا ، ط1، دار الحامد ، عمان ،

5- علي ، علي عبدالخالق : الشعر العماني مقوماته واتجاهاته وخصائصه الفنية ، ط1، دار المعارف ، القاهرة ، 1984

6- غرموس ،إبراهيم : آفاق الرؤيا البنيوية ،دراسات في أنواع التناص في الشعر الفلسطيني المعاصر، ط1، الهيئة العامة للكتاب ، وزارة الثقافة ، جامعة بيرزيت ،2005 ،

7- الماضي ، شكري عزيز ، في نظرية الأدب ، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، 2005 ،

8- المطروشي ،حسن : وحيدا كقبر أبي

9- المغربي، حافظ : أشكال التناص وتحولات الخطاب الشعري المعاصر ، ط1 ،مؤسسة الانتشار العربي ، بيروت ، 2010 ،

10- الناصر، إيمان عيسى :وحدة النص وتعدد القراءات التأويلية في النقد العربي المعاصر ، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ،2011

11- http://om.s-oman.net/showthread.php?t=136144

http://om.s-oman.net/archive/index.php/t-136144.html−12